﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ٦٦﴾ [النّمل: 66]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تفصيلُ القولِ في ضلالِ المشركين، وتخبُّطِهم في أمرِ البعثِ خاصّةً والآخِرةِ عامّةً

بعد أنْ بيّنتِ الآيةُ السّابقة مدى ضلالِ هؤلاء المُكذِّبين الذين يَدّعون عِلْمَ الغيبِ وموعدَ قيامِ السّاعة، أوِ الذين يسألون تعنُّتًا ومكابرةً - شرعتِ الآيةُ في تفصيل ضلالهم وإبطالِ مزاعمِهم، كما جاء في الخبر عن عبد الله بن عبّاس قال: قال جَبَل بن أبي قُشَيْرٍ وسَمَوْأَلُ بنُ زيد لرسول الله ﷺ: أخبِرنا متى السّاعة إن كنتَ نبيًّا كما تقول، فإنّا نعلمُ ما هي؟ فأنزَل الله: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ﴾ [الأعراف: 187] إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٧﴾ [الأعراف: 187]، فبيّن سبحانه أنّ هؤلاء لا عِلْمَ لهم بها، وأنّهم لا يشعرون بها حتّى وقتِ البعثِ، ثمّ شرعتْ هذه الآيةُ في تفصيل مدى اضطرابهم وشكِّهم وضلالهم في أمر الآخرة ضلالًا بعيدًا[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱدَّٰرَكَ﴾: (درك) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ لُحوقُ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ ووُصولُهُ إلَيْهِ. يُقالُ: أَدْرَكْتُ الشَّيْءَ أُدْرِكُهُ إدْراكًا، وتَدارَكَ القَوْمُ: لَحِقَ آخِرُهُمْ أَوَّلَهُمْ. والمعنى المحوريّ لمادة (درك): لحاقٌ أو تعلّقٌ بطرَفِ الشّيء أو أقصاه[2]. و﴿ٱدَّٰرَكَ﴾ بِهَمْزةِ وصْلٍ في أوَّلِهِ وتَشْديدِ الدّالِ، عَلى أنَّ أصْلَهُ (تَدارَكَ)، فَأُدْغِمَتْ تاءُ التَّفاعُلِ في الدّالِ لِقُرْبِ مَخْرَجَيْهِما بَعْدَ أنْ سَكَنَتْ واجْتُلِبَ هَمْزُ الوَصْلِ لِلنُّطْقِ بِالسّاكِنِ[3].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/ 292، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/ 449، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 202.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (درك).

(3) ابن منظور، لسان العرب: (درك).

والأصلُ في معنى ﴿ٱدَّارَكَ﴾، استحكم وتكامَل[1]. فالمعنى في الآية: أَنّه تتابع عِلْمُهُمْ في الآخِرَةِ وتواطأَ حينَ حَقَّتِ القيامَةُ[2].

2) ﴿شَكٍّ﴾: (شكك) أَصْلٌ واحِدٌ مُشْتَقٌّ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ، وهوَ يَدُلُّ عَلَى التَّداخُلِ. مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: شَكَكْتُهُ بِالرُّمْحِ، وذَلِكَ إذا طَعَنْتَهُ فَداخَلَ السِّنانُ جِسْمَهُ[3]. ومِنْ هَذا البابِ الشَّكُّ، الَّذي هوَ خِلافُ اليَقينِ، وهو اعتدالُ النّقيضين عند الإنسانِ وتساويهما، وذلك قد يكون لوجود أمارتَين متساويتين عندَ النّقيضين، أو لعدم الأمارة فيهما، والشَّكُّ ربّما كان في الشّيء، هل هو موجود أو غيرُ موجود؟ وربّما كان في جنسه، من أيّ جنس هو؟ وربّما كان في بعض صفاته، وربّما كان في الغَرض الذي لأجله أوْجد، والشَّكُّ: ضربٌ منَ الجَهْل، وهو أخصّ منه؛ لأنّ الجَهْل قد يكون عدمَ العِلْم بالنّقيضين رأسًا، فكلُّ شَكٍّ جهلٌ، وليس كلّ جهل شكًّا، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾ [هود: 110]، ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾﴾ [الدّخان: 9][4].

3) ﴿عَمُونَ﴾: (عمي) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى سَتْرٍ وتَغْطِيَةٍ. مِنْ ذَلِكَ العَمَى: ذَهابُ البَصَرِ مِنَ العَيْنَيْنِ كِلْتَيْهِما[5]. والفِعْلُ مِنْهُ عَمِيَ يَعْمَى عَمًى، ورَجُلٌ عَمٍ، إذا كانَ أَعْمَى القَلْبِ؛ وقومٌ عمون، جَمْعُ (عَمٍ)، وهو على زنة (فَعِل) مِنَ العَمى، وصاغوا لَهُ مِثالَ المُبالَغَةِ لِلدّلالَةِ على شِدَّةِ العَمى، وهوَ تَشْبيهُ عَدَمِ العِلْمِ بِالعَمى، وعادِمُ العِلْمِ بِالأعْمى[6]، وقولُه تعالى: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾: أي: بل هم منَ العِلْم بقيامها عَمون[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيَّن اللّهُ سبحانه في هذه الآية حقيقةَ موقفِ الكفّار الذين يدَّعي بعضُهم عِلْمَ الغيب، ويسأل بعضُهم عن موعد وقوع السّاعة، ويُشَكّكُ بعضُهم في قضية البعث.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (درك).
(2) الرّاغب، المفردات: (درك).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شكك).
(4) الرّاغب، المفردات: (شكك).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عمي).
(6) الرّاغب، المفردات: (عمي).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عمي).

تفصيلُ القولِ في ضلالِ المُكذّبين المُعاندين بشأن الآخرة

وتبيّن الآية أنّه قد اضمحَلّ علمُ المُشركين بالآخرة؛ لكفرهم بها في الدُّنيا، فإذا ما بُعِثوا يومَ القيامة وشاهدوا العذابَ، أيقنوا بحقيقتها، وتكاملَ علمُهم واستحكم بأنّ ما كانوا ينكرونه في الدّنيا قد صار حقيقةً لا شَكّ فيها، ولا مَفَرّ لهم من عذابها، أي: علمكَ بما كنتَ تُنكرُه في الدّنيا قد صار في نهاية القوّة والوضوح[1].

وعلى الرّغم من كثرة الأدلّة المُؤدّيَة إلى الإيمان واليقين بقضية البعث، فإنّ هؤلاء الكفّارَ ما زالوا في شكٍّ وتكذيبٍ، بعد أن حَجَبَتْهم الغَفْلةُ، ومنعَهُم الجَهْلُ منَ الإيمان، حتّى صاروا كأنّهم عميان، يسيرون على غير هدًى.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فائدةُ الحرفِ ﴿بَلِ﴾ وفضْلِه عمّا قبلَه:

من أساليبِ القرآن المُعجزةِ التّرقّي في التّعبير من درجة إلى درجة

في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ افتُتحت الآيةُ بحرف ﴿بَلِ﴾، فَفُصلت عن الآية السّابقة عليها؛ وذلك لشبه كمالِ الاتّصال بينهما، فإنّ البعثَ أحدُ أحوالِ الآخرة، وقد أفادتِ الإضْرابَ الانْتقاليَّ مِنَ الإخْبارِ عَنْهم بـ ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾، وهو ارْتقاءٌ إلى ما هو أغْرَبُ وأشَدُّ ارْتقاءً من تَعْييرِهِمْ بِعَدَم شُعورِهِمْ بِوَقْتِ بَعْثِهِمْ إلى وصْفِ عِلْمِهِمْ بِالآخِرَةِ، الَّتي يكون البَعْثُ من أوَّلِ أحْوالِها، وهو الواسِطَةُ بَيْنَها وبَيْنَ الدُّنْيا بِأنَّهُ عِلْمٌ مُتَدارَكٌ أوْ مُدْرَكٌ[2]. وفائدةُ الإضرابِ بـ ﴿بَلِ﴾ أيضًا أنّه "لمّا نفَى عنهم عِلْمَ الغيبِ وأكّد ذلكَ بنفي شعورِهم بوقت ما هو مصيرُهم لا محالةَ، بولغَ في تأكيدِه وتقريرِه بأنْ أضربَ عنْهُ وبيَّن أنَّهم في جهلٍ أفحشَ من جهلِهم بوقت بعثِهم، حيثُ لا يعلمونَ أحوالَ الآخرةِ مُطلقًا معَ تعاضدِ أسبابِ معرفتِها"[3].

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 455.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 22.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 296.

عِلّةُ التّعبيرِ بالفعل ﴿ٱدَّارَكَ﴾ مادّةً وصيغةً:

تعدُّدُ المعاني التي يشملُها الفعلُ تأكيدٌ بالغٌ لاضطراب المشركين في أمر البعث

جاء النّظمُ الحكيم باستعمال الفعل ﴿ٱدَّارَكَ﴾، وذلك لِما يشتمل عليه من معانٍ متعدّدةٍ كما مرّ في المعنى الإجماليّ للآية، وقد اختلف اللّغويّون والمفسّرون في كيفيّة توجيهِ هذه المعاني المتعدّدةِ، لتسيرَ على نسقٍ واحد معَ الإضرابات الثّلاثة الواردةِ في الآية. والخلاصةُ: أنّ "مَعْنى التَّدارُكِ هو أنَّ عِلْمَ بَعْضِهِمْ لَحِقَ عِلْمَ بَعْضٍ آخَرَ في أمْرِ الآخِرَةِ؛ لِأنَّ العِلْمَ - وهو جِنْسٌ - لَمّا أُضيفَ إلى ضَميرِ الجَماعَةِ حَصَلَ مِن مَعْناهُ عُلومٌ عَديدَةٌ بِعَدَدِ أصْنافِ الجَماعاتِ الَّتي هي مَدْلولُ الضَّميرِ، فَصارَ المَعْنى: تَدارَكَتْ عُلومُهم بَعْضُها بَعْضًا"[1]، وتكاملَت واستحكَمت، أو تمَّ أسبابُ علمِهم بأنّ القيامة كائنةٌ لا محالةَ منَ الآيات القاطعةِ والحُجج السّاطعةِ، وتمكَّنوا منَ المعرفة فضلَ تمكّنٍ، وهم جاهلون في ذلكَ[2].

التّوجيهُ البلاغيّ للقراءات في ﴿بَلِ ٱدَّارَكَ﴾:

تضافرت القراءاتُ ذاتُ الأسلوبِ الخبريّ على تأكيد ضلال المُكذّبين بالبعث والآخرة

قرأ نافعٌ، وابنُ عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائيّ، وخَلَف ﴿بَلِ ٱدَّارَكَ﴾، وقرأ ابنُ كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب ﴿بَلْ أَدْرَكَ﴾[3]، وعلى قِراءَة مَن قَرَأ ﴿بَلِ ٱدَّارَكَ﴾، فالمَعْنى: بَلْ تَدارَكَ عِلْمُهم ما جَهلوهُ في الدُّنْيا، أيْ عَلموهُ في الآخِرَةِ، بِمَعْنى: تَكامَلَ عِلْمُهم في الآخِرَةِ بِأنَّ كُلَّ ما وُعِدوا بِهِ حَقٌّ، وهَذا حَقيقَةُ إثْباتِ العِلْمِ لَهم، لِمُشاهَدَتِهِمْ عَيانًا في الآخِرَةِ ما وُعِدوا بِهِ غَيْبًا في الدُّنْيا، وكَوْنُهُ بِمَعْنى المُضيِّ، ومَعْناهُ الاسْتِقْبالُ؛ لِأنَّ الإخْبارَ بِهِ صِدْقٌ، فَكَأنَّهُ قَدْ وقَعَ[4]. وأمّا على قراءة من قرأ ﴿أَدْرَكَ﴾ بمعنى: بلغ ولحق، فالمعنى:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 21 - 22.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 297.
(3) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 339.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 16/ 471 - 478، والآلوسيّ، روح المعاني: 20/ 42، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 21 - 22، والخطيب، معجم القراءات: 6/ 545.

أنّهم لم يُدركوا علمَ الآخرة، أي: لم يعلموا حدوثَها وكونَها، ولم ينظروا في حقيقتها فيدركوها، ودلَّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾، والعَميُّ عن عِلْم الشّيء أبعدُ منه منَ الشّاكّ فيه؛ لأنّ الشّكّ قد يَعرضُ عن ضرب منَ النّظر، والعَميّ عنِ الشّيء الذي لم يدرك منه شيئًا[1].

بلاغةُ المجازِ في نسبة التّدارك إلى العِلْم:

مبلغُ الاضطرابِ والضّلالِ الذي وقع فيه الكافرون بسبب جهلِهم بأمر الآخرة

من خلال تأمُّلِ معنى التَّدارُك يمكن القولُ: إنه صالحٌ لتحقيق معنَيَين مجازيّين؛ **الأوّل:** التَّلاحُقُ، وهو اسْتِعْمالٌ مَجازيٌّ يُساوي الحَقيقَةَ، أيْ: تَدارَكَتْ عُلومُ الحاضِرينَ مَعَ عُلوم أسْلافِهِمْ، أيْ: تَلاحَقَتْ وتَتابَعَتْ، فَتَلَقّى الخَلَفُ عَنِ السَّلَفِ عِلْمَهم في الآخِرَةِ وتَقَلَّدوها عَنْ غَيْرِ بَصيرَةٍ ولا نَظَرٍ، وذَلِكَ أنَّهم أنْكَروا البَعْثَ، ويُشْعِرُ لِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعالى عَقِبَهُ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ۝٦٧ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وقَريبٌ مِن هَذا قَوْلُهُ تَعالى: ﴿بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٨١﴾ [المؤمنون: 81]. **والوَجْهُ الثّاني:** أنْ يَكونَ التَّدارُكُ مُسْتَعْمَلًا مَجازًا مُرْسَلًا في الاخْتِلاطِ والاضْطِرابِ؛ لأنَّ التَّدارُكَ والتَّلاحُقَ يَلْزَمُهُ التَّداخُلُ، كَما إذا لَحِقَتْ جَماعَةٌ مِنَ النّاسِ جَماعَةٌ أُخْرى، أيْ: لَمْ يَرْسوا عَلى أمْرٍ، واخْتَلَفَتْ أقْوالُهُمُ اخْتِلافًا يُؤْذِنُ بِتَناقُضِها، فَهم يَنْفونَ البَعْثَ ثُمَّ يَزْعُمونَ أنَّ الأصْنامَ شُفَعاؤُهم عِنْدَ اللّه مِنَ العَذابِ، وهَذا يَقْتَضي إثْباتَ البَعْثِ ولَكِنَّهم لا يُعَذَّبونَ، ثُمَّ يَتَزَوَّدونَ تارَةً لِلْآخِرَةِ بِبَعْضِ أعْمالِهِمُ الَّتي مِنها: أنَّهم كانوا يَحْبِسونَ الرّاحِلَةَ عَلى قَبْرِ صاحِبِها ويَتْرُكونَها لا تَأْكُلُ ولا تَشْرَبُ حَتّى تَموتَ؛ فَيَزْعُمونَ أنَّ صاحِبَها يَرْكَبُها يومَ الحشر، ويُسَمّونَها البَلِيَّةَ، فَذَلِكَ

(1) الفارسيّ، الحجّة للقرّاء السّبعة: 5/ 400.

مِن اضْطِرابِ أمْرِهِمْ في الآخِرَةِ. وفِعْلُ المُضِيِّ عَلى هَذَيْنِ الوَجْهَيْنِ عَلى أصْلِهِ[1].

معنى ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي ٱلْآخِرَةِۖ﴾:

الكفّارُ ضالّون في أمر البعث والآخرة

حَرْفُ ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي ٱلْآخِرَةِۖ﴾ مُسْتَعْمَلٌ في السَّبَبِيَّةِ، أيْ: بِسَبَبِ الآخِرَةِ، ويَجوزُ فيه وجْهٌ آخَرُ وهو أنْ يَكونَ ﴿ٱدَّٰرَكَ﴾ مُبالَغَةً في (أدْرَكَ)، ومَفْعولُهُ مَحْذوفًا تَقْديرُهُ: إدْراكُهم، أيْ: حَصَلَ لَهم عِلْمُهم بِوَقْتِ بَعْثِهِمْ في اليَوْمِ الَّذي يُبْعَثونَ فيهِ، أيْ: يَوْمَئِذٍ يوقِنونَ بِالبَعْثِ، فَيَكونُ فِعْلُ المُضِيِّ مُسْتَعْمَلًا في مَعْنى التَّحَقُّقِ، ويَكونُ حَرْفُ ﴿فِي﴾ عَلى أصْلِهِ مِنَ الظَّرْفِيَّةِ[2].

فائدةُ تَكرارِ حرف ﴿بَلْ﴾:

أسلوبُ الارتقاء القرآنيّ يُبيّنُ مدى ضلالِ الكفّار في أمر الآخرة

كَرَّر النّظمُ الحكيم حرفَ الإضراب ﴿بَلْ﴾، فبعد أن أثبت في الجملة السّابقة اضطرابَهم وضلالَهم بقوله: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِۖ﴾، جاءت جُمْلَةُ ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَاۖ﴾ لتفيدَ الإضرابَ الانتقاليّ، لِلارْتِقاءِ مِن كَوْنِهِمُ اضْطَرَبَ عِلْمُهم في الآخِرَةِ، أوْ تَقَلَّدَ خَلَفُهم ما لَقَّنَهُ سَلَفُهم، أوْ مِن أنَّهُمُ انْتَفى عِلْمُهم في الآخِرَةِ، إلى أنَّ ذَلِكَ الاضْطِرابَ في العِلْمِ قَدْ أثارَ فيهِمْ شَكًّا مِن وُقوعِ الآخِرَةِ، وفي ذلك بيانٌ بالغٌ لمدى ضلالهم وجهلهم وإفكهم[3]. فالإضرابُ انتقلَ في الجملة من بيانِ عدم علمِهم بالآخرة، إلى بيانِ ما هو أسوأُ منه وهو حيرتُهم وشَكُّهُمُ المُريبُ منها، ومِن تحقّقها، كَمن تحيَّر في أمرٍ لا يجدُ عليه دليلًا، فضلًا عنِ الأمورِ التي ستقعُ فيها[4].

عِلّةُ ذِكْرِ المسنَد إليه ضميرًا غائبًا في ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾:

في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَاۖ﴾، جاء المسندُ إليه ضميرًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 22.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 22.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 22.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 297.

غائبًا؛ قصدًا للإيهام والتّعميم، حتّى يشملَ كلَّ مَن ينطبق عليه منَ المُشَكّكين في أمر البعث. كما أنّ التّعبير بضمير الغائب في سياق الآية الكريمة يحمل نوعًا منَ التّوبيخ والإنكار على المُشَكّكين. وهو في الوقت نفسه يُحَقّق إيجازًا واختصارًا في العبارة دونَ أن يُخِلّ بالمعنى. وضَمائِرُ جَمْعِ الغائِبينَ في هذه الآية والآية السّابقة عائِدَةٌ إلى ﴿مَن﴾ المَوْصولَةِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، و﴿مَن﴾ هَذِهِ وإنْ كانَتْ مِن صيَغِ العُمومِ، فالضَّمائِرُ المَذْكورَةُ عائِدَةٌ إلَيْها بِتَخْصيصِ عُمومِها ببَعْضِ مَن في الأرْضِ، وهُمُ الَّذينَ يَزْعُمونَ أنَّهم يَعْلَمونَ الغَيْبَ مِنَ الكُهّانِ والعَرّافينَ وسَدَنَةِ الأصْنامِ، الَّذينَ يَسْتَقْسِمونَ لِلنّاسِ بِالأزْلامِ، وهو تَخْصيصٌ لَفْظِيٌّ مِن دَلالَةِ السّياقِ، وهو مِن قِسْمِ المُخَصَّصِ المُنْفَصِلِ اللَّفْظِيِّ[1].

في عدم التّصريحِ بالصّفة قصدٌ لعموم المُكذّبين وتوبيخٌ للمشركين

فائدةُ تَكرارِ كلمة ﴿مِّنْهَا﴾:

كَرَّر النَّظمُ الحكيم كلمةَ ﴿مِّنْهَا﴾ في الآية في موضعين؛ لتأكيد شَكّهم وضلالِهم وجهلِهم، وقد جاءت في الموضعين لِلابْتِداءِ المَجازيِّ، والمرادُ بها في الموضع الأوّل: أنّهم في شَكٍّ ناشِئٍ عَنْ أمْرِ الآخِرَةِ. ومعنى (مِن) في الموضع الثّاني: جَعْلُ عَماهم وضَلالِهم في إثْباتِ الآخِرَةِ كَأنَّهُ ناشِئٌ لَهم مِنَ الآخِرَةِ؛ إذْ هي سَبَبُ عَماهم، أيْ: إنْكارُها سَبَبُ ضَلالِهِمْ. وفي الكَلامِ مُضافٌ مَحْذوفٌ تَقْديرُهُ: (مِن إنْكارِ وجودِها عَمونِ). والظَّرْفِيَّةُ لِلدّلالَةِ عَلى إحاطَةِ الشَّكِّ بِهِم من كلّ جانب[2].

إحاطةُ الشّكّ والضّلال بالمشركين وفسادُ عقولِهم وقلوبِهم

دلالةُ الإضرابِ الثّالث بـ ﴿بَلْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ انتقل الاضرابُ الإضرابُ

اختلالُ البصائرِ كلّيًّا يُعمي عن كلّ سبيلِ رُشْدٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 23 - 24.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 22 - 23.

عنِ الشّكِّ في الآخرة إلى بيانِ أنَّ ما هُم فيه أشدُّ وأفظعُ منَ الشّكِّ؛ إذ لا يكادونَ يُدركون دلائلَها لاختلالِ بصائرهم بالكلّيّة[1].

دلالةُ الجملة الاسميّة في الموضعين:

جيءَ بالجُمْلَةِ الاسْميَّةِ في قَوْلِه: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾؛ للدّلالَةِ عَلى ثَباتِ الخَبَرِ ودَوامِه، فنفوسُ الكافرين المُكذّبين للبعث قد تمكّنَ منها الشّكُّ، وتَردّت في مهاوي الضّلال، فلم يَعُد في مقدورها الوصولُ إلى الصّراط المستقيم في أمر البعث والآخرة، فكان التّعبيرُ بالجملة الاسميّة أنسبَ للمَقام.

الشّكُّ ثابتٌ مترسّخٌ في نفوس الكافرين متمكّنٌ من عقولهم

عِلّة تقديمِ الجارّ والمجرور في ﴿مِّنْهَا﴾:

قَدّمَ النّظمُ الحكيم الجارَّ والمجرور ﴿مِّنْهَا﴾ على مُتَعَلِّقِه ﴿عَمُونَ﴾ في قوله: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾؛ لِلاهْتِمامِ بِالمُتَعَلِّقِ، وهو قضيّةُ البعث في الآخرة؛ إذ هي محور الآية ومقصدُها، كما أفاد هذا التّقديم رعايةَ الفاصلة القرآنيّة، حتّى يستمرَ الأثرُ الإيقاعيّ المنسجمُ.

الاهتمامُ بالمُتقدّم ورعايةُ الفاصلة من أساليب النّظم القرآنيّ

ويفيد تقديمُ شِبهِ الجملة ﴿مِّنْهَا﴾ أيضًا معنى الاختصاص، أي: أنّهم عَمون عنِ الحياة الآخرة، وليسوا عَمين عن غيرها، وهي أعراضُ الدّنيا وما فيها من لهو ولعبٍ وملاذَّ وشهواتٍ[2].

دلالة التّعبيرِ بـ ﴿عَمُونَ﴾ دون غيره:

جاءت كلمةُ ﴿عَمُونَ﴾ جَمْعُ (عَم) على زنة (فَعِل) مِنَ العَمى، صاغوا لَهُ مِثالَ المُبالَغَةِ لِلدّلالَةِ عَلى شِدَّةِ العَمى، وهو تَشْبيهُ عَدَمِ العِلْمِ بِالعَمى، وعادِمُ العِلْمِ بِالأعْمى[3]، وفي ذلك بيانٌ لمَبْلغ حالِهم في الجهل والضّلال. وذهب بعضهم إلى القول بأنّها استعارة؛ لأنّ العَمى هنا لا يُراد به فَقْدُ الجارحةِ المخصوصة، وإنّما يُراد بِهِ

اختُصّ عماهم بالآخرة، وتطلّعت نفوسُهم الى ملذّات الدّنيا

ما زال المشركون يخوضون في ضلالتهم حتّى أصاب العمى عقولَهم وقلوبَهم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 297.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5477.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 22 - 23.

التّعامي عنِ الحَقّ، والذّهابُ صفحًا عنِ النّظر والفكر، إمّا قصدًا وتعمّدًا، أو جهلًا وعمًى. وإنّما أُجريَ الجهلُ مُجرى العمى في هذا المعنى؛ لأنّ كلَّ واحد منهما يمنع وجودُه إدراكَ الشّيءِ على ما هو به؛ إذِ الجهلُ مضادٌّ للعِلْم والمعرفة، والعمى مُنافٍ للنّظر والرّؤية[1]. وقد آثَرَ النَّظمُ الحكيمُ العدولَ عن (عُمْيٍ) و(عُمْيان) إلى صيغة المبالغة؛ للدّلالة على شِدّة جَهْلِهم.

سِرُّ التّعبير بـ ﴿مِّنْهَا﴾ دونَ (عنها):

تـأكـيـدُ شَـكّ المـشـركـين في قضية البعثِ والآخِرة

عبّر النَّظمُ الحكيم بحرف الجَرّ ﴿مِّنْهَا﴾، ولم يقُلْ (عنها)؛ لأنّ المُراد أنّهم يشكّون فيها، ويمترون في صحّتها، فهم في عمًى منها؛ ولا يصِحُّ أنْ يكون في هذا الموضع (عنها)؛ لأنّه ليس المُرادُ ذِكْرَ عماهم عنِ النّظر إليها، وإنّما القَصْدُ ذِكْرُ عماهم بالشّكِّ فيها، وهذا من لطائف المعاني[2].

فائدةُ ترتيبِ هذه الإضرابات الثّلاثة:

التّدرُّج في بيان ضلال الكفّار في أمر الآخرة، يُؤكِّدُ جهلَهم وافتراءَهم على الله

الإضْراباتُ الثّلاثةُ في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ رُتِّبت بحسب تَنْزيلِ أحْوالِهِمْ؛ فَوُصِفوا أوَّلًا بأنّهم لا يَشْعُرونَ بوَقْتِ البَعْثِ، ثُمَّ بأنّهم تَلَقَّفوا في شَأْنِ الآخِرَةِ الَّتي البَعْثُ من شؤونِها عِلْمًا مُضْطَرِبًا أوْ جَهْلًا، فَخَبَطوا في شَكٍّ ومِرْيَةٍ، فَأعْقَبَهم عَمًى وضَلالَةٌ بحَيْثُ إنَّ هَذِهِ الانْتِقالاتِ مُتَدَرِّجَةٌ مُتَصاعِدَةٌ، حَتّى لَوْ قيلَ: (بَلِ ادّارَكَ عِلْمُهم في الآخِرَةِ فَهم في شَكٍّ منها فَهم منها عَمونَ) لَحَصَلَ المُرادُ، ولَكِنْ جاءَتْ طَريقَةُ التَّدَرُّجِ بالإضْرابِ الانْتِقالِيِّ أجْزَلَ وأبْهَجَ وأرْوَعَ، وأدَلَّ عَلى أنَّ كُلًّا من هَذِهِ الأحْوالِ المُرَتَّبَةِ جَديرٌ بأنْ يُعْتَبَرَ فيهِ المُعْتَبَرُ باسْتِقْلالِهِ، لا بكَوْنِهِ مُتَفَرِّعًا عَلى ما قَبْلَهُ، وهَذا البَيانُ هو ما أُشيرَ إلَيْهِ آنِفًا عِنْدَ

(1) الشّريف الرّضيّ، تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص: 261 - 262.
(2) الشّريف الرّضيّ، تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص: 261 - 262.

الكَلام عَلى قِراءَةِ الجُمْهورِ ﴿ٱدَّارَكَ﴾ مِن خَفاءِ تَوْجيهِ الإضْرابَيْنِ اللَّذَيْنِ بَعْدَ الإضْرابِ الأوَّلِ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الشّكّ والرَّيب:

الرَّيبُ اتّهامٌ وظَنُّ سوءٍ، والشّكُّ حيرةٌ واضطراب

الرَّيب: حالةٌ فكريّةٌ تميل نحوَ الاتّهام وظَنِّ السّوءِ، وهو حالةٌ مَرَضيَّة تُؤدّي إلى تَوَهُّم الحقيقة، وتُرَجِّحِ التُّهْمَة بغير دليل.

والشّكُّ: حالةٌ منَ الحَيْرَة والاضطراب، يجعل اليقينَ يَتذَبْذَب ويتَأرْجَحُ بينَ الأمرين، من غير مرجِّح لأحدهما، وهو حالةٌ فطريَّةٌ تنشأ عند غياب الأمارة المُرجِّحَة، وعند الجهل بالحقيقة.

وفي إطار هذه الدّلالات جاء كلٌّ منَ اللّفظين يُعبِّر عن معناه الذي يُؤكّد أنّ هذا اللّفظَ في موضعه له معنى لا يُؤدّيه مُرادِفُه[2]. ولمّا كان المشركون في هذه الآية يعانون من حالةٍ منَ التَّشَتُّت ويَغْلِب عليهم الجهلُ بأمر البعثِ خاصّةً، وسائرِ أمورِ الآخرة عامّةً، فقد جاء النّظمُ بما يُفيد هذا المعنى، وهو (الشّكُّ) دونَ (الرّيب)[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 22 - 23.
(2) سامي هلال، التّرادف في القرآن بينَ المثبتين والنّافين، ص: 54.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 568، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 99.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الأربعون،
سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الأربعون، سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 40 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-90-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 40 : المجلد الأربعون، سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-90-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9294238 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»